أسطرة الواقع في الرواية الشفوية الفلسطينية
انتفاضة الأقصى / حقول الموت نموذجاً

أ.د. إحسان الديك
جامعة النجاح الوطنية – نابلس – فلسطين

تأسيس:

كثيرة هي أحداث انتفاضة الأقصى التي اندلعت في الثامن والعشرين من أيلول عام **2000** واستمرت إلى أواسط عام **2007**، ولا يستطيع أي باحث أن يحيط بها أو يلم بكل ما جرى في أعوامها السبعة، ففي كل يوم بله في كل ساعة أو دقيقة منها حدث، ومع كل حدث رواية أو روايات عن فاعله وضحاياه ونتائجه.

وبخاصة أننا وإلى اليوم لم ننهض في فلسطين لجمع روايات الناس حول هذه الأحداث وتوثيقها كما فعلنا في روايات النكبة. وأنّي لفرد أو مجموعة بمثل هذا العمل لضخامته وديمومته وكثرة أحداثه، ولعل كل المؤسسات الرسمية والشعبية مدعوة عندنا للإسراع في توثيق هذه الروايات قبل أن تفلت من ذاكرة من عايشوها، أو تفقد حيويتها وحرارتها وإشعاعاتها من نفوسهم مع مرور الأيام.

أما وقد مرّ على هذه الانتفاضة سنوات عدة، ولم يوثق من رواياتها إلا القليل، لذا اقتضى المنهج العلمي أن اعتمد

على أهم الكتب التي تناولت هذا الجانب وهو كتاب انتفاضة الأقصى / حقول الموت لصاحبه محمد دراغمه[1]، لأنه أقرب عهداً بالانتفاضة، حيث صدر سنة 2008، ولأن مؤلفه صحفي عايش الأحداث وعاينها، واستمع إلى روايات شخوصها ودوّنها، عمل مراسلاً صحفياً لصحيفة الأيام الفلسطينية والحياة اللندنية، ووكالة الاسوشيتدبرس، فطاف مختلف المناطق الفلسطينية وسجل أحداثها المركزية وتأثيرها على حياة الناس وأرواحهم وممتلكاتهم وسلوكهم وقيمهم، وثق بالعين والقلم اجتياح الجيش الإسرائيلي لكل شيء في طريقه: المباني والأسواق والشوارع والحيوان والبشر والحجر والشجر.

يقع الكتاب في ثلاثمائة وثلاث وسبعين صفحة من الحجم المتوسط، احتوى على مئات الشهادات، وضعها في عنوانات تدلل على الأحداث الجسيمة، فذكر ما رآه بأم عينيه وما سمعه من عامة الناس بأذنيه، طاف البلدة القديمة في نابلس وشاهد الجثث تحت الأنقاض، وذهب إلى مخيم جنين ووثق روايات عن أساطير مواجهة الموت في الأزقة الفقيرة الضيقة، ذهب إلى المشافي وشاهد الأجساد المحترقة وشم لأول مرّة رائحة الشواء البشري، شاهد أطفالاً خرجوا للعب، فحولّهم رصاص الأعداء جثثاً هامدة أو مقعدين، ونساء وضعن حملهن على الحواجز العسكرية، وأناساً كثيرين ماتوا على تلك الحواجز، وقف يرصد خطوات عروس بثوب الزفاف تشق طريقها بين

الدبابات لتلتقي بعريسها في الجانب الآخر من الحاجز، ورأى المأذون الشرعي وهو يعقد قران شاب مقدسي على فتاة في الشارع العام عند الحاجز العسكري. وقف مع هؤلاء والمئات غيرهم ووثق قصصهم التي صبغها الاحتلال باللون الأسود وقدمها في هذا الكتاب.

ومما يدلل على صدق صاحب الكتاب، ودقة شهاداته، أن الباحث – ومن خلال معيشته في فلسطين – عايش هذه الأحداث، وكان شاهداً عليها، رأى معظمها، وسمع الكثير منها، أو من أمثالها، فكان شاهداً على الشاهد والحدث معاً.

على عتبة عنوان الكتاب (انتفاضة الأقصى / حقول الموت)

العنوان قواد الكاتب الحقيقي[2]، وهو أول ما يلقانا من النص، وآخر ما يفكر به الكاتب، يدفعه إلى موقع الصدارة ليكون هاديه إليه.

ولعل الشهادات والأحداث التي تضمنها الكتاب، وفاقت العقل، وتجاوزت حد الوعي هي التي دفعت صاحبه لاختبار هذا العنوان الذي يتماهى مع الملمح الذي يسعى إليه البحث من وراء هذه الشهادات في دلالتها على أسطورية الواقع وأسطرته.

تشير لا منطقية العنوان إلى لا واقعية الحياة في ظل انتفاضة الأقصى، حين غدت حقولاً يصول الموت فيها ويجول، يتربص بهم أين ذهبوا، ويقضي على أمل الحياة فيهم أين حلّوا.

وتؤسس هذه اللامنطقية – في الوقت نفسه – لثنائية الحياة والموت وجدلها مع واقع الانتفاضة الغريب العجيب، الذي تلتقي فيه

الحياة وجهاً لوجه مع الموت، كما تؤكد على جدلية الحضور والغياب، فالحقول / ضوء الحياة، المضافة للموت نفسه الدالة على الكثرة هي خبر هذه الانتفاضة والأخبار مقصورة عليها، وكأن الكاتب، يكثف مئات الشهادات، ويفصح عن مشاعره وهو يدلي بشهادته، ليرسم بها ومنها حقول الحياة المخضبة بماء الحياة / الدم، ليقول: من وسط الموت تولد الحياة، ومن حلكة الليل يبزغ فجر الحرية.

الواقع الفلسطيني الأسطوري ودوافع الأسطرة:

لعل الواقع الذي يعيشه الشعب الفلسطيني، باعتباره شعباً يرزح تحت نير الاحتلال، يختلف في تفاصيل حياته اليومية الطبيعية عن أي شعب آخر مستقل، فهو يعيش على هامش التاريخ، مأموراً، مقهوراً، مسلوب الإرادة، مدمر النسيج، ينظر الفرد منه إلى بيته فيراه مهدوماً، ويذهب إلى أرضه التي جبلها بماء القلب فيمنع من الوصول إليها، يمسي غريباً، ويصبح غريباً بين عيون الغرباء، يموت في اليوم ألف مرة، ويسقط آلاف السقطات الجسدية والنفسية.

ومما زاد من أسطورية هذا الواقع، التغيير الكبير الذي طرأ عليه في ظل انتفاضة الأقصى، حيث انتقلت حياة كل أفراده إلى حالة خيالية لا يحكمها عقل، ولا تخضع لمنطق، حياة مليئة بالألم، مفعمة بالمأساة، يتمنى فيها المرء النجاة من كل مظاهر الموت التي تتربص به، فهي بين سفك دماء، وسفح دموع، وهدم بيوت، وذهاب أحلام، وفقدان أمل، لكن بالرغم من كل ذلك، أظهر الإنسان الفلسطيني

إصراراً أسطورياً على الحياة، ورغبة غريبة في مواصلة النهوض، وممارسة الأمل.

ولقد حفر هذا الواقع أخاديده في وعي الناس ولا وعيهم، ودفعهم إلى التغلب عليه بالإغراب فيه، ومواجهته بالغرابة في الفعل والقول، إذ يمكن إنتاج القول الغريب بسهولة كما يقول فرويد «عندما يضطرب التمييز بين الخيال والواقع، فعندما لا يستطيع أن يميز ما إذا كان في عالم متخيّل أو في عالم واقعي، تزداد احتمالات ظهور الغرابة، بل تكون هذه بداية الغرابة نفسها»[3].

ولا يحتاج الراوي الفلسطيني – في ظل هذا الواقع الغريب العجيب – إلى قوة ابتكارية فذة يستطيع من خلالها تصوير واقعيته الفردية، ورفعها إلى مستوى الواقعة الإنسانية العامة، ذات الطابع الأسطوري، من خلال تعايش الواقعي العادي مع الغريب غير المألوف، حيث يصبح الواقع بوابة الدخول إلى اللاواقع، والمعقول عتبة مشرعة على اللامعقول»، «فمن تلك الممكنات والمحتملات تشرع الذاكرة في صياغة الحكايات والوقائع والأحداث»[4]. وهنا يبدأ التداخل بين الصورة النمطية والأسطورة «بحيث يمكن للصورة النمطية أن تكون أسطورة بالقوة، كما يمكن للأسطورة أن تولد سلسلة من الصور النمطية»[5].

وتقوم الأسطورة بمهمة الخيال المحقق للأماني، فالمرء لا يهرب من الواقع إلى دنيا الأسطورة، بل على العكس من ذلك، فإن الأسطورة تمثل الخيال في الحياة الواقعية لما له من أثر نفسي، لذا، فهو خيال واقعي يختلف عن الخيال الوهمي الزائف في الحكايات الشعبية[6].

تكمن أهمية الرواية الشفوية لا فيما تكشفه من حقائق أو أحداث، وإنما فيما يعتقده الراوون أنفسهم أنها حقائق، أي كيف يتذكرون الحدث، وليس ما يتذكرونه منه، وعلى هذا فليس مطلوباً من التاريخ الشفوي الإجابة الشافية والواقعية والدقيقة عن أسئلة محددة تتعلق بحدث سياسي معين، لأن مثل ذلك يمكن الحصول عليه من الكتب والصحف والمجلات[7].

كما تكمن أهمية الحكاية في المبالغة والتضخيم والبعد عن الحقيقة، لأنها تعبّر عن حالات عاطفية ووجدانية، فحكاية الرضيع الفلسطيني الذي تركته أمه في سريره وهربت، والتي بنى عليها غسان كنفاني روايته «عائد إلى حيفا» نسمعها بصيغ مختلفة لكنها جميعاً تبرز حالة الرعب التي سيطرت على الناس في لحظات الهجرة[8].

ولقد ارتبطت غرابة القول في الراوية الشفوية الفلسطينية إبان انتفاضة الأقصى بالوحشة[9]، وهي حالة من الشعور بالعزلة

والخوف، والرهبة، والافتقار إلى الأمن، التي نتجت عن علاقته بالآخر المتوحش، فلجأ إلى كل ما هو غريب عجيب للتصدي لهذا الواقع، وتحويل خوفه إلى طمأنينة، ووحشته إلى أنس، فأسطر كثيراً من الشخصيات، وأدخلها دائرة القداسة، ورفعها عن الواقع، وجعلها نماذج عليا وأنماطاً أصيلة، أما شخصيات العدو وأفعالها، فأدخلها في دائرة الأسطرة السالبة، فأحل عليها اللعنة ووصلها بالشياطين والأشباح[10].

والخوف دافع مهم من دوافع الأسطرة، وإحساس الراوي الفلسطيني بالخوف والرعب العميقين من العدو الغريب، دفعه إلى تصوير خلخلة الاتزان والانسجام، واستحضار كل غريب لينفي الألفة عن الواقع، ومن ثم الاندفاع إلى تغييره.

ولقد كانت الأسطرة الملاذ الآمن لهذا الراوي في أثناء هروبه من واقعه النفسي الذي لم يستطع تحمله، والتكيف معه، فتوجه إلى عالم الخيال والأمل ليحله محله، ليكون أكثر حرية وأمناً وسلامة.

ولا عجب أن تصدر هذه الأسطرة عن الراوي الذي ينتمي إلى عامة الشعب، لأن الأسطورة لب لباب الموروث الشفاهي ترتبط بذاكرة الشعب الجمعية وتعبر عن لا شعوره، واهتماماته الروحية، وخلجاته النفسية.

ولقد استطاع هذا الراوي التقاط بذور الحياة من مجريات أحداثه اليومية الخارقة، وزجها في خضم الصراع، ليخلق الكون الفلسطيني الذي يقف في وجه الآخر، ويعبر من خلاله عن همومه وأحلامه، وآماله وآلامه.

طرق الأسطرة ومظاهرها:

تفاوتت طرق أسطرة الواقع في الرواية الشفوية الفلسطينية، واستخدمت فيها آليات وإمكانات أدخلتنا في عالم اللامعقول، وكلها نابعة من خصوصية ظرف الراوي ومعاناته النفسية والجسدية جراء هذا الواقع الذي يمارس القهر والقمع ويخلق الرعب والهستيريا. ومن أهم هذه الطرق:

1. حالة المابين بين:

وهي حالة من التلبس لا يدرك الراوي فيها أنه في حلم أو علم، وهل ما يشاهده أو يحدث أمامه حقيقة أم أنه خيال، وفيها تلغى الفوارق بين الواقع واللاواقع من خلال الشك وفقدان اليقين.

أن تشم رائحة شواء اللحم أمر معتاد، أما أن تكون هذه الرائحة للحم رجال همهم إنقاذ حياة الناس شوته قذيفة صهيونية حارقة، فهذا لم تره العيون ولم تعهده الأنفس، يروى

الطالب طاهر محمد صافوري (17 عاماً) المتطوع في جهة الهلال الأحمر الفلسطيني بعد أن تمكن من الكلام وكان في حالة بين الوعي والغياب، «وأثناء توجهنا إلى المخيم (جنين) مررنا بدبابات عدة، وبينما نحن نسير، شعرنا أن السيارة تغرق في بركة من الماء المغلي، وجدت نفسي خارج السيارة والنيرات تشتعل في جسدي، نظرت إلى الدكتور خليل فوجدت جسده مشتعلاً بنيران رهيبة»[11]

وحينما يسأل أحد العاملين في جمعية الهلال عن صديقة سائق السيارة محمد العيني الملقى على سرير بجانبه مرتجفاً وقد سلخت أذناه وتفحّم وجهه، يقول بدهشة: «الله أكبر هذا لا يمكن أن يكون محمد، أنا أعرفه منذ عشرة أعوام إنه ليس هو»[12]

حالة المابين بين هذه هي حالة بدئية، تتلاقي فيها الأشياء، وتغمرها الدهشة، وتؤدي إلى الصدمة حين تكون فيها الحقيقة حلماً، والحلم حقيقة، هذه حال أصغر أسير فلسطيني نور غانم ابن الأسيرة منال غانم (32 عاماً) التي وضعته قبل سنتين ونصف السنة في المعتقل، وفصلته سلطات العدو عنوة عنها لبلوغ هذه السن، وذلك بعد تحايل من والدين لإخراجه من الزنزانة، يقول والده: «أخذت معي ابنتي الكبرى نفين (12 عاماً)، وهناك في الزيارة قلنا له إن نفين تريد أن تلاعبك، وما أن وافق

حتى جلبه الشرطي من خلف القضبان الفاصلة بيننا وبين والدته، ومن هناك استدرجناه إلى الحافلة ثم إلى البيت»[13]

غير أن الطفل بدا وكأنه قادم من كوكب آخر وهو يحاول اكتشاف عالمه الجديد بدهشة، وظل في حنين دائم إلى زنزانة أمه، بيته الأول، يعيش حياة السجن في بيته الجديد، تقول عمته أريج: «يجوب نور المنزل كأنه سجن، يطلب المفاتيح، ويأخذ بإغلاق الأبواب، يسأل عن أمه، وعن البنات (يقصد الأسيرات) وما أن يسمع صرير باب حتى ينطق بكلمة عدد التي يرددها السجانون ثلاث مرة في اليوم لإحصاء الأسرى»[14].

كثيرون هم المواليد الذي قضوا شهداء في ولادات عسيرة على الحواجز العسكرية، لكننا هنا أمام شهيد من نوع جديد، جنين اخترقت رصاصة بطن أمه، وأصابته إصابة قاتلة في الرأس الطري، ذلك هو جنين السيدة مها قاطوني (30 عاماً) من مخيم العين بمدينة نابلس، يصف والد الجنين رأفت قاطوني 37 عاماً المشهد قائلاً: «كان الرصاص يسقط غزيراً على غرفة الأطفال، وقد اعتقدنا أنه يمكن لنا أن نبعدهم عن الخطر بنقلهم إلى غرفة في الجهة الأخرى دون أن نفكر أن هذه الحركة قد تعرضنا للخطر، فحينما يتعرض أطفالك للخطر، فإن آخر ما تفكر به هو نفسك»[15].

بدت ملامح الشهيد ابن الأشهر السبعة واضحة، تماماً كما لو قضى بعد الولادة، ويُلف بالعلم الفلسطيني، وتنظم له جنازة شعبية، ويدفن في مقبرة المخيم قبل أن يختار له والداه اسماً يعرف به قبره، ويردف أبوه قائلاً: «لقد فقدنا اليوم ابناً له روح وجسد وملامح إنسان قتل دون ذنب سوى أنه يعيش على هذه الأرض»[16].

2. السريالية (الفواقعية / فوق الواقع):

تنسجم السريالية مع حالة الراوي النفسية، وتدفق تيار اللاوعي عنده، حين يطلق للنفس سجيتها فتملي ما بداخلها من تداعيات تعبر عن الانفعالات العميقة في غياب كل رقابة ذهنية أو عقلية، فأي حالة نفسية سيكون عليها الوالد الكهل مصطفى أبو صفقة (92 عاماً) حين يطلق الجنود الصهاينة النار على ابنه الشاب ناصر (32 عاماً) بدم بارد أمام عينيه، ويترك ينزف أمام ناظريه حتى يفارق الحياة، يقول الأب: «كان الدم قد سال على طول حوالي ثلاثين متراً، فأدركت أن ناصر قد مات، فمن ينزف هذه الكمية الكبيرة من الدماء لن ينجو ... الصورة لن تفارقني أبداً، كانت الدماء كثيرة كأنها دماء أربعة خراف ذبحت معاً، أي نوع من البشر هؤلاء، لقد قضيت من العمر ثلاثة وتسعين عاماً، عاصرت فيها دولاً وأقواماً عديدة ولم أر مثل هؤلاء، يوقفون الناس في الشوارع ويقتلونهم دون رحمة»[17].

وتتصارع مشاعر الألم والأمل في نفس الأب ياسر أبو إياد (44 عاماً) من مخيم جنين، حين سقطت قذيفة على منزله والأسرة تهم

بالخروج منه، فتفرق كل واحد منهم في طريق، ويعثر على زوجته وبناته، وظن أن أبناءه الثلاثة قد قضوا تحت الأنقاض، ويقول: «وفي اليوم الخامس لانتهاء المعركة عاد أحد الأولاد وإذا به كان في السجن، لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن أخويه الآخرين اللذين كانا في السجن أيضاً ... لقد أمضيت الأيام السابقة قبل ظهور أولهم وأنا أحفر تحت أنقاض البيت ظناً بأني سأجدهم تحت الأنقاض»[18].

وتنسحب مثل هذه المشاعر على العروس فتحية أبو يعقوب من قرية كفل حارس التي شاء لها القدر أن يكون عرسها في ظلال الدبابات، وأن تقطع الحاجز العسكري مشياً على الأقدام مرتدية ثوب الزفاف الأبيض، ولم يكن بانتظارها عريسها على الطرف الآخر من الحاجز خوفاً من اعتقاله، تصف حالها بقولها: «أنا حزينة لأنني ذاهبة إلى حفل زفافي شبه وحيدة، فغالبية أهلي لم يتمكنوا من مرافقتي كما هي عليه العادة في حفلات الزفاف، وفي الوقت ذاته أنا فرحة لأنني أحقق حلمي مثل أي فتاة بالزواج ممن اخترت»[19].

هكذا بدا المشهد الفلسطيني من خلال وقفة فتحية على الحاجز تحت أشعة الشمس الحارقة: عروس بثوبها الأبيض الرامز إلى الحياة، يقابلها الموت ممثلاً في الجنود وبنادقهم ودباباتهم، وهم يحتجزون مشروع الفرح الفلسطيني ويقتلون فيه نسائم الحياة. وليس غريباً أن تقول بعد أن أجهشت بالبكاء: «أما أنا فإني أمضي وحيدة إلى زفافي كأنني ذاهبة إلى مأتم وليس إلى فرح العمر»[20].

تتعدد لأحداث التي تفوق طاقة الواقع، وتتجاوز منطق الحياة في هذه الانتفاضة، وتتعدد معها حالات رواتها، وردود فعلهم عليها، فتضطر الطالبة ريم أبو رعد الانتقال إلى جامعتها في سيارة إسعاف، وتقول: «انني اضطررت مرة لمرافقة جثة صبي في الرابعة عشرة من عمره كي أصل إلى جامعتي»[21].

ويجبر ماهر النقيب (25 عاماً) من مخيم عسكر والمصاب بإعاقة نصفية سفلية – في أثناء اعتقاله على ما لا طاقة له به، أن يترك كرسيه المتحرك ويمشي على قدميه «لقد طلبوا مني المستحيل وهو الوقوف على رجلي المصابتين بشلل تام منذ ثماني سنوات ... أخذت أشرح لهم بالعبرية أنني معاق حركياً، لكن أقوالي لم تجد أذناً صاغية عندهم، فقد ظنوا أنني أتظاهر بالإعاقة وصمموا على مطالبتي بأن أقف وأمضي معهم، وعندما عجزت عن ذلك سحبوني من شعري وألقوا بي من على درج الدور الثاني من البيت إلى الدور الأرضي»[22].

ويعجز ماهر عن وصف ما تعرض له في أثناء وجوده في معسكر حوارة، يقول «ما تعرضت له أقوى من أي وصف أو تصوير» يكفي أن تتصور المشهد التالي: إنسان مصاب جزؤه السفلي بشلل تام، ملقى في إحدى الخيام في المعسكر، وهو مقيد اليدين ومعصوب العينين دون أن يتاح له في هذه الفترة الطويلة أن يدخل مرفقاً صحياً لقضاء حاجته»[23] ولا يشعر بالخجل حين يقول وسط دهشة سامعيه «كنت أقضي حاجتي في ملابسي ولم يكن أمامي أي خيار آخر»[24].

وتتذكر المرأة الحامل رولا اشتيه (29 عاماً من قرية سالم) التفاصيل المؤلمة التي عاشتها في العراء على حاجز بيت فوريك، ممزقة بين مشاعر اليأس والرجاء، قلقة على حياتها وحياة جنينها، وحين يمنعها جنود الاحتلال من الوصول إلى المشفى للولادة، وحين يأتيها المخاض، تنسيها شدة الألم الخجل من عيون الجنود، وتتصرف بفطرة الأم فتقول: «لا أعرف ما جرى؟ وكيف جرى؟ لقد شعرت فجأة بأنني على وشك الولادة، نظرت حولي فلم أجد ما أستر به نفسي سوى كومة حجارة، فأسرعت إليها دون تفكير، وهناك وجدتني أضع المولودة بكل سهولة»[25] ويكمل زوجها تفاصيل المشهد المؤلم قائلاً: «كانت زوجتي في حالة صعبة، وجهها أزرق محتقن، وكانت تحمل المولودة بين يديها، ارتبكت أمام الموقف، ولم أدر ماذا أفعل، فأشارت علي أن أقطع الحبل السري، ولم أجد ما أقطعه سوى الحجارة، فاستخدمت حجرين وضعته على حجر وضربته الحجر الثاني»[26].

أما الشاب خالد عدنان صقر (19 عاماً من مخيم عسكر) فتباغته رصاصات ثلاث تحرمه من إكمال طعامه، تقول أمه المنهكة المتهالكة وراء نَعْشِه: «كانت بقايا الطعام ما زالت على فمه حبيبي عندما وصلت إلى المستشفى»[27]. ويقول والده وقد بدت عيناه مثل كتلتي جمر من شدة البكاء عليه: «لا لا لا، ابني لم يكن يرشق الحجارة كما يدعون – يقصد الإسرائيليين – ابني خرج من البيت قبل دقائق فقط، وذهب ليشتري لنا بعض

الحاجيات، وقد اشترى له ساندويتش فلافل، وبينما كان يتناوله أطلقوا النار وقتلوه»[28].

ويمارس جنود الاحتلال ساديتهم، فيتلذذون بتعذيب الشباب، والتنكيل بهم وسط ضحكاتهم وسخريتهم، فيجبرون شاباً تحت تهديد السلاح على خلع ملابسه، والجلوس في تجمع للمياه في جو ماطر شديد البرودة، أصيب بعدها بانهيار عصبي دل على ذلك حركاته الهستيرية، وصفه سامر لفداوي العامل في إطفائية نابلس حين وصل إليه بعد أن أفرجوا عنه فقال: «لقد كان متجمداً غير قادر حتى على حمل ملابسه، وقمنا بتغطيته ونقله إلى الطبيب»[29].

ويمعن هؤلاء الجنود في إذلال الناس حين يخشدون كرامتهم، ويمسّون مقدساتهم، فيختارون شيخاً ملتحياً على أحد الحواجز، ويطلبون منه أن يفتح حقائب الفتيات ويخرج منها ملابسهن الداخلية قطعة قطعة، فيشيح الرجال وجوههم خوفاً من إحراج الفتيات، حينئذ تقول ريم أبو رعد الطالبة في طب الاسنان بالجامعة الأمريكية / جنين «هذا عادي جداً يا إخوان فهذه المرة العاشرة التي أتعرض فيها لاحتجاز مثل هذا»[30].

3. الهستيريا والخوف:

الهستيريا الناتجة عن الرعب مظهر آخر من مظاهرة أسطورية واقع الانتفاضة وأسطرتها حين يأخذ الناس بسرد

رواياتهم عن خوفهم وقلقهم في أثناء حصارهم، ومعايشة الموت لهم، حيث يدمر كل شيء حولهم: بيوتهم ومساجدهم وكنائسهم، وشوارعهم وأسواقهم المحترقة والمهدمة، وجثث أبنائهم الملقاة في الشوارع تنهشها الكلاب، «يجبر الجنود صبري هندية (24 عاماً) على الخروج بملابس النوم ويهدمون البناية على كل شيء»[31]، ويطلقون النار على محمود عكة الذي كان يرقب سقوط القذائف على حي مجاور، فيقتلونه ويمنعون أهله من دفنه أو نقله إلى ثلاجة الموتى، فيبقى في البيت ويصف أخوه أثر وجود الجثة على أبنائه فيقول: «اعتقد أولاده الصغار طوال الوقت، أن أباهم نائم، فكانوا يهرعون إليه مع شكاويهم الصغيرة، ويأخذ صغيرهم بهزّ جسده المتيبّس قائلاً: «بابا بابا اصحى لترى ماذا فعل بي أخي فلان»[32].

وتزداد حالة الهستيريا والرعب عند الأطفال الصغار قريبي العهد بالفطرة، حين يعيشون تجربة الموت الجماعي ويتخبطون في دمائهم، تقول شهيناز شطارة (25 عاماً من مخيم عسكر): «كنت أنظّف بيت الدرج المغلق، ولم يخطر ببالي أن الجنود الذين يحتلون سطح بيت عمي المجاور سيطلقون النار على أطفال يلعبون ... وفجأة انهمر الرصاص كالمطر، وأخذ أطفالي في الصراخ فهرعت إليهم لأجد علاء يتخبط بدمه، وعندما شاهدت بقعة دم تتسع تحت قلبه، ورأيت ثقباً في قميصه، فقدت صوابي فأخذت بالصراخ على نحو هستيري»[33].

ثم يصف الأب آثار هذه الحادثة على علاء وشقيقاته الثلاث: روان 6 سنوات، ورولا 5 سنوات ورغد 2,5سنة، فيقول: «لم يعودوا طبيعيين أبداً فهم يفيقون من نومهم فزعين، وعلاء على نحو خاص يتفقد نوافذ البيت طالباً مني إغلاقها خشية أن يشاهده الجنود مرة أخرى، ويطلقوا النار عليه»[34].

لا تختلف حال أطفال أحمد محمود داود من قرية عصيرة القبلية في رعبهم وقلقهم وتوجسهم عن حال أطفال مخيم عسكر، كما أنه لا يختلف المستوطنون المدججون بالسلاح في مستوطنة يتسهار عن جنود الاحتلال أنفسهم في بث الرعب والفزع في نفوس الأطفال، حين هاجموا بيت المذكور الواقع في الطرف الشرقي من القرية، فعاثوا فيه فساداً، وحوّلوا حياة ساكنيه إلى جحيم. تقول الطفلة سماح (9 سنوات): «كلما حاولت أن أغمض عيوني رأيتهم – أي المستوطنين» مقنعين بالأسود ويصرخون وهم يهاجمون بيتنا بالحجارة»[35]. وتقول والدة الأطفال الأربعة واصفة ذعرهم: «إنهم يرفضون النوم في غرفة منفصلة عنا، وغالباً لا يتمكنون من النوم بصورة طبيعية، وبعضهم وبخاصة الأصغر علاء يفزّ من فراشه مفزوعاً وهو يصرخ: الحرامي، الحرامي، فقد أبلغناه أنهم لصوص عندما سألنا لماذا يعتدون علينا»[36].

وتتعاظم مشاعر فزع الأم الأسيرة منال غانم على طفلها الرضيع خلف القضبان فتقول: «الخطر على حياته جراء رش

الأسيرات بمياه وربما الغاز، حاجته للشمس وضوء النهار والهواء النقي، حاجته للألعاب ولكل ما لا يتاح وراء الأبواب المقفلة ذات الصرير فائق الإزعاج ... عندما فتحوا خراطيم المياه علينا حملته، وخبأته في جوف صدري، وهرعت إلى أكثر الأمكنة أماناً في الغرفة، خلف جهاز التلفاز، وجلست مقوّسة الظهر كي أوفر له أكبر قدر ممكن من الحماية»[37].

أما أطفال الشهداء، فدائما يسألون عن آبائهم الذين تركوهم، يقول أحمد أخو الشهيد زاهي العارضة واصفاً حال ابنة الشهيد: «عندما تنتبه الطفلة إلى صورته المعلقة على الجدار تبدأ بالبكاء قائلة: بدي بابا ... بدي بابا، نشاغلها قليلاً حتى تنسى، لكنها سرعان ما تعود إلى السؤال والبكاء من جديد»[38].

وتصف والدة الشهيد عصمت الصابر حالة التشويش التي تعيشها حفيدتها بعد رحيل والدها «حينما يحل المساء ولا يعود تبدأ بالسؤال عنه متى يعود لاحتضانها وملاعبتها، وماذا سيحضر لها معه؟ وغالباً ما تقف نيفين أمام صورة والدها المعلقة في غرفة الجلوس وتتحدث إليه كما كانت تفعل وهو حي»[39].

4. النوستالجيا (الحنين إلى الماضي):

قد تتأتى الأسطرة من عدم قدرة الذات على استرجاع الماضي اليوتوبي الجميل الذي كان مألوفاً، وصار لبعده وغربته، وفقدان

الأمل في عودته غير مألوف، فيحضر ذاك الماضي وكأنه عجيب غريب.

ومن خلال المقاربة بين حدوث غير المألوف والمألوف في الزمان والمكان، تنفجر في نفس الراوي هواجس البهجة والأمل بالارتداد إلى الخلف الحلم، وهواجس الذعر والخوف من الواقع الحاضر، هذا ما نراه في حاجة الحاجة بدرية سفيان في أثناء حصار الجيش لمدينتها إلى شربة الماء فقط من غير سواها، وهي التي كانت تبدد منه في أوضاعها الطبيعية عشرات الجالونات، «ماء ماء لا نريد سوى قليل من الماء للأطفال العطشى في البيت... ها نحن ندور على البيوت طالبين زجاجة ماء من هذا وأخرى من ذاك ... كنا احتطنا لمثل هذه الحالة قبل الاجتياح، لكن عندما هدمت قوات الاحتلال بناية سكنية مجاورة لنا وشردت 15 أسرة تقطن فيها، استضفنا ثلاث أسر منها في بيتنا فاستنفذنا مخزوننا من الماء، ولم يتبق لدينا ما يسد الظمأ منذ ثلاثة أيام»[40].

وانظر إلى حنين أسرة منور اسماعيل «28 عاماً من قرية بيت ايبا» إلى الماضي المألوف الذي غدا ماضياً يوتوبياً جميلاً، وصارت وجبة الطعام الساخنة التي اعتادت عليها أمر عجباً، بعد أن حول جنود الاحتلال منزل أسرتها المكونة من أحد عشر فرداً إلى ثكنة عسكرية، تقول: «هذا ليس مبالغة فالموت قد يكون أهون من الحياة مع جنود يحتلون حياتك، ويهددونك في كل لحظة، ويمتهنون كرامتك، ويسجنونك في ظروف بعد السجن معها نزهة»[41] وأردفت تقول:

«لقد بتنا نعاني من فقر دم جراء عدم توفر الخضار والفواكه، واعتمادنا كلياً على الغذاء المعلب وكانت هذه الكمية من لحوم الدجاج بمثابة كنز لنا، لأن الأطفال تمكنوا من تناول وجبة ساخنة»[42]

يتمنى الطفل عبد الفتاح نصار أبو عيشه 14 عاماً أن يعود إلى وضعه الطبيعي إلى المشي على رجليه بعد أن أطلق جنود الاحتلال الرصاص عليه فأصابوا فقرتين من عموده الفقري فشلّوا جسده النحيل، يقول: «مللت السرير عندي رغبة في أن أرمي هذه الأغطية، وأن أخرج من هنا ... أبلغني عمي هاني أن المستشفيات هناك في الأردن تعالج من هم في حالتي، وتعيد لهم مقدرتهم على المشي»[43].

هذه الأحاسيس والأماني التي انتابت رواة هذه الحكايات، تؤكد ما قاله ديفد موريس بأنها «إحساس مهين يصيب المرء بالدوار والذهول، إحساس يحملنا على نحو عميق إلى ما وراء الأحاسيس والأجواء الإنسانية العادية، وهو إحساس ينطلق عندما نواجه الصورة الخفية المحرفّة لكنها غير المبعدة من رغباتنا المكبوتة»[44].

5. الدهشة والغرابة:

ترتبط الدهشة بالغرابة، ذلك أنها ذهول ورجة ووجدانية أمام شيء خارق للعادة غريب غير مألوف، وهما يحيلان معاً على عالم اللاشعور الباطني / عالم النفس الحقيقي، وتصحبان بالتوتر

والحيرة، حينما يعجز الإنسان عن تمثّل ظاهرة أو حدث معطى، وتثيران الاهتمام لأنهما مرتبطتان بالتوجس واحتمال وقوع أحداث مفاجئة أو تغييرات في الأحداث الجارية.

ليس غريباً أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان على الرغم مما في عملية القتل من بشاعة وفظاظة وذهول، لكن الأغرب والأكثر إثارة للدهشة والبرودة في القتل وامتزاجه بابتسامة القاتل، وعدم شعوره بالذنب، تزحف دبابة من دبابات الاحتلال نحو سيارة وتطلق عليها زخات من رشاشها فتقتل الشابة ريحانة العارضة (25 عاماً) وتصيب زوجها السائق جلال 28 عاماً، ووالدته خديجة 60 عاماً، ويروي عوض دويكات صاحب بقالة كان شاهداً على الحادثة فيقول: «هرعت نحوهم صارخاً بعد أن شاهدت الشابة تنزف محتضرة، وقلت لهم بالعبرية: لقد قتلتم إنسانة هنا، فردوا ببرود قائلين: ومن قال لهم أن يخرجوا من بيوتهم في حظر التجول ... وطلبت منهم أن يقدموا الإسعاف للسيدة التي أطلقوا عليها النار، لكنهم هزوا رؤوسهم ببرود ولا مبالاة وكأن لا أحد يموت أمام عيونهم»[45].

وقد يغدو المألوف غريباً إذ نتج في ظروف استثنائية غير طبيعية أو صدر عمن لا يُتوقع منه، يطلق جنود الاحتلال على السيارة التي يقودها عصام شحادة (31 عاماً من حوارة) فتصاب زوجته الذاهبة معه إلى المشفى للولادة بعيار ناري في

الصدر، فيصرخ بهم، بأن زوجته تموت، ويأتي جندي ليتأكد من الحدث ويطلب من زميل له يعتقد أنه طبيب، فينقلون الزوجة بالدبابة إلى الحاجز ويوقفون النزيف، ويتحدث الزوج عن دهشة الزوجة ومشاعرها غير المتوقعة من الذين اعتادوا القتل فيقول: «لقد شعرت بداية أنها ستموت من شدة الإصابة، فأخذت توصيني بطفليها، حتى والجندي يقدم لها الإسعاف الأولي ظلت تشعر بالقلق والخوف، وزاد خوفها عندما وضعها الجنود في الدبابة، وأخذت تسألني: إلى أين سيأخذوننا، غير مصدقة أنهم سيقدمون لنا العلاج»[46].

1. والدهشة عينها تعلو وجوه أسر ضحايا المجزرة التي نفذها المستوطن آشر بحق زملائه العمال العرب في مصنع للزجاج قرب مستوطنة شيلو، قال عاطف شقيق الشهيدين أسامة وبسام: «لم نتوقع أن يحصل هذا لهم فقد كانوا على علاقة حسنة مع العمال اليهود في المصنع، وكثيراً ما كانوا يأخذون لهم خبز الطابون وزيت الزيتون، كان بينهم خبز وملح»[47].

هذا هو الواقع الفلسطيني في ظل انتفاضة الأقصى حقول من الموت، واقع اللاواقع الذي تجاوز حد العقل، أجبر الراوي الفلسطيني الذي يعايشه على تلمس وسائل التعبير الفطرية التي تصل إلى حده وتعبّر عنه، فكان تعبيره أسطورياً مشاكلاً له.

المصادر والمراجع

1. أفاية، محمد نور الدين: الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، ط**1**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، **2000**.

2. دراغمة، محمد: انتفاضة الأقصى، حقول الموت، ط**1**، مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، رام الله، فلسطين، **2008**.

3. الديك، إحسان: أسطرة الواقع في شعر وليد سيف، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، فلسطين، مجلد **22**، **2008**.

4. الديك، إحسان: الاغتراب والغرابة في قصص رياض بيدس، موسوعة أبحاث ودراسات الأدب الفلسطيني الحديث، مجمع القاسمي للغة العربية، باقة الغربية، فلسطين، **2012**.

5. عبد الحميد، شاكر: الغرابة، المفهوم وتجلياته في الأدب، سلسلة عالم المعرفة، المجلد الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير، **2012**.

6. قطوس، بسام: سيمياء العنوان، وزارة الثقافة الأردنية، عمان، **2002**.

7. كناعنة، شريف، ونبيل علقم: ليش الشتّوح طلق عزيزة، دراسة في النكت السياسية والأساطير والحكايات، انتفاضة **1987** وحرب الخليج، رام الله، **2008**.

8. ناطور، سلمان: ثلاثون عاماً من النبش في الذاكرة، شهادة، مجلة التراث والمجتمع، جمعية انعاش الأسرة، البيرة، فلسطين **2005**.

9. نمرة، سونيا: رؤية نقدية لعملية التأريخ الشفوي في الحالة الفلسطينية، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد **18**، العدد **71**، صيف **2007**.

10. اليوسفي، محمد لطفي: فتنة المتخيّل والكتابة ونداء الأقاصي، ط**2**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، **2002**.